شعر الفتوحات والمعارضات

مستخلص من رسالة ماجستير بعنوان:

شِعرُ شهابِ الدِّينِ الحَلبيِّ(ت٧٢٥هـ)
دراسة فنية

Poetry of conquests and oppositions

Extract from a master's thesis entitled:

The poetry of Shihab al-Din al-Halabi (d. 725 AH)

Technical study

إعداد الدراسة

أميرة رمضان محمد سكران

طالبة ماجستير قسم الدراسات الأدبية

كلية دار العلوم – جامعة الفيوم

تحت إشراف

أ.د فرحان محمد عمار المطيري

أستاذ الأدب العربي

كلية دار العلوم جامعة الفيوم

أ.د محمد سليم شوشة

أستاذ الدراسات الأدبية

كلية دار العلوم جامعة الفيوم

الملخص

تناولت هذه الدراسة غرضين من الأغراض الشعرية عند شهاب الدين الحلبي، وهما شعر الفتوحات، بالإضافة إلى المعارضات الشعرية لديه، إذ تسعى الدراسة إلى الكشف عن مكنونات النصوص الشعرية، وتهدف الدراسة إلى بيان قصائد الفتوحات، ومفهومها، وخصائصها، ومدى براعة الشاعر في إيجادها، وسبب كثرة الشعر السياسي لدية؛ فهو لديه شعر سياسي كثير، وأعلى طبقاته الشعرية وجدت في شعر الفتوحات، فكان من المميزين في وصف المعارك والفتوحات التي شهدها في عصره.

وكذلك المعارضات الشعرية، وبيان مفهومها، ودوافعها، وشروطها، وشكل قصيدة المعارضة، وأشهر من عارضهم شهاب الدين الحلبي، فشعر المعارضة لدي الشاعر أخرج مواهبه، وقدرته الشعرية الرصينة، فيستطيع أن يكتب بحرية منساقًا وراء انفعالاته النفسية، ويستطيع أن يكتب متحديًا، ومتقيدًا بوزنٍ وقافية محددين.

Abstract

two of the poetic purposes of Shihab al-Din al-Halabi, namely the poetry of conquests, in addition to his poetic oppositions. The study seeks to reveal the hidden contents of poetic texts. The study aims to explain the poems of conquests, their concept, and characteristics, and the extent of the poet's skill in creating them, and the reason for He has a lot of political poetry; He has a lot of political poetry, and his highest levels of poetry were found

in the poetry of conquests. He was distinguished in describing the battles and conquests that he witnessed in his time As well as poetic oppositions, explaining their concept, motives, conditions, and the form of the opposition poem, and the most famous oppositionist is Shihab al-Din al-Halabi. The poet's opposition poetry brought out his talents and his sober poetic ability, so he can write freely, guided by his psychological emotions, and he can write defiantly, and bound by meter and rhyme. Specific.

الكلمات المفتاحية:

شعر الفتوحات، المعارضات الشعرية، شهاب الدين الحلبي.

المقدمة:

شهد القرن الثامن الهجري حركة علمية وأدبية كبيرة على حدٍّ سواء بالرغم من الأحداث السياسية، والاضطرابات التي كانت تشهدها البلاد؛ سواءً أكانت صراعات داخلية مثل صراعات المماليك فيما بينهم على الحكم، أم الصراعات الخارجية مثل هجمات الصليبيين أو التتار على البلاد، وربما هذه الاحداث كان لها فضل كبير في النهضة الأدبية وخاصة في الشعر، فالشاعر ابن بيئته يتأثر بها وينطق بحال لسانها، ويصف ما يشاهده فيها من طبيعةٍ وأحداثٍ أيضا، فيصف ما يدور فيها من أحداث وينظم فيها القوافي، كما فعل شاعرنا شهاب الدين الحلبي المنتمي إلى هذه الفترة الزمنية (ت ٧٢٥هـ)، الذي رصد لنا أغلب الأحداث السياسية التي كانت في عصره من فتوحات، فشهد عصره العديد من الفتوحات السياسية، وأشهرها فتح عكا الذي كتب فيه أعظم قصائده الشعرية وتناولها العديد من المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الحقبة التاريخية مثل بن أيبك الدواداري في كتابه كتر الدرر وجامع الغرر[١]، وابن كثير في كتابه البداية والنهاية[٢] وغيرهما.

شهاب الدين الحلبي له رصيد كبير من شعر الفتوحات التي عاصرها ورصدها لنا في شعره كأنه فارس من جنود المعارك، وغرضه الشعري في هذا اللون به قوة فنية واضحة يضاهي بها عمالقة الشعر العربي، كما فعل وعارض أبي تمام في قصيدة في فتح عمورية، وقصيدة شاعرنا في فتح عكا، بالرغم من الفارق الزمني بينهم.

ظهرت المعارضات في شعر شهاب الدين الحلبي بوصفها غرضا مستقلا في شعره ـحتي ولو كان قليلا ـ فعارض من سابقوه كحبيب بن أوس الطائي ،ومن عاصروه كأبي عثمان الخالدي وهو كان صديقا لشهاب الدين الحلبي، وأثبت الشاعر براعة في هذا المجال .

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الذي يقوم على جمع المعلومات، وتصنيفها، ومن ثم تحليلها؛ وصولًا إلى النتائج والأحكام، كما استفادت الدراسة من المنهج الفني في معالجتها الفنية للصور الشعرية عن الشاعر، ولغته، وأسلوبه.

جاءت هذه الدراسة في مبحثين:

المبحث الأول: شعر الفتوحات.

المبحث الثاني: المعارضات الشعرية.

المبحث الأول شعر الفتوحات

كان شعر الفتوحات موجودا في شعرنا العربي منذُ عصر صدر الإسلام، والذي كان موجودا في العصر الجاهلي هو شعر الحرب والغزو؛ حيث ارتبطت الفتوحات بالإسلام ونشر الدين أو فتح البلاد وإدخالها في الإسلام.

وكان حسَّان بن ثابت الشاعر المتحدث الرسمي للمسلمين في الغزوات والحروب التي يخوضها المسلمون ضد الكفار والمشركين من أجل إعلاء كلمة الإسلام والدفاع عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم، فكان يصف الغزوات؛ كبدر وأُحد وحُنين وفتح مكة وغيرها، ويثني على بسالة جيش المسلمين، ولأن الشعر هو ديوان العرب، فالعرب سجلت الأحداث والانتصارات في دواوين شعرية خالدة حتى عصرنا هذا.

أمّا العصر المملوكي والأيوبي فكانا في فترة صراعات محتدمة، فجاء الصليبيون والتتار المغول، وشهدت البلاد اضطرابات سياسية على الصعدين: المحلي والخارجي. والشعر هو لسان الأمراء والملوك المتحدث عنهم، والشاعر يستلهم موضوعاته من البيئة التي يعيش فيها، وأحداثها، وفتوحاته.

ويتسارع الشعراء في التهنئة بالفتوحات والمعارك السياسية، كإثبات ولاء للقائد، وتهنئة لشعبه، وتذكير الناس بفضله وفتوحاته حتى يرضى الشعب عنه ويقدموا له الولاء.

وشهاب الدين الحلبي قد وصف بعض الفتوحات التي عاصرها مثل: فتح عكا وفتح طرابلس وفتح حصن المرقب وفتح قلعة الروم وغيرها.

وتتميز قصائد الفتوحات لديه ببعض الخصائص، منها:

أولًا: دخوله في الموضوع مباشرة دون مقدمات، فيدخل مباشرة في التهنئة بالفتح أو الحمد والشكر لله على هذا الفتح.

ثانيًا: يصف المعركة بشيء من التفاصيل وكيف فتحت؟ ودور القائد الشجاع في هذا الفتح.

ثالثًا: تتميز قصائده بالربط بين أجزائها عن طريق السرد القصصي.

رابعًا: مدح قائد المعركة والثناء عليه وعلى دوره البارع في الفتح.

خامسًا: وصف المعارك في شعر الفتوحات الإسلامية تخضع لنزعة دينية واضحة تتمثل في عقيدة الجهاد من أجل الدفاع عن الإسلام.

وقصائد الفتوحات لدى شاعرنا لا تبدأ بالمقدمات الشعرية المعهودة لديه مثل المقدمة الغزلية وغيرها، بل تبدأ بالحمد والتكبير وشكر لله على نعمة هذا الفتح العظيم، والثناء على عزم الممدوح، ثم يشرع في تهنئة الممدوح، فيقول في فتح عكا[٣]:

الحمـــدُ لله ذَلّـــت دولـــــةُ الصـــلبِ وعزَّ بالتُّرْكِ دينُ المصْطَفى العَـــربي

يستهل قصيدته الشهيرة في فتح عكا بحمد لله على زوال دولة الصليبيين، وأن المماليك (الترك، فالمماليك أصلهم أتراك) عزوا دين الإسلام بهذا الفتح، وهذه المقدمة تثبت براعة من الشاعر النابعة من النزعة الدينية الأصيلة في شخصية شهاب الدين الحلبي.

وقال في فتح طرابلس، يمدح السلطان قلاوون ويهنئه بالفتح، ويشكر كل مَن أولى السلطان وأعانه على الفتح[٤]:

عَلَيْنا لِمَن أوْلَـــاكَ نعْمَتـــــهُ الشـــكر لأنَّـــكَ للإسْـــلَام يـــا سَـــيفَهُ ذخـــرُ
ومنَّا لَكَ الإخْلَـــاصُ في صَـــالِحِ الـــدُّعا إلى مَنْ لَـــهُ في أمـــرِ نُصْـــرَتِكَ الأمْـــرُ

تبدو براعة الاستهلال حين فتح الشاعر رائيته بمخاطبة السلطان قلاوون واستخدام ضمير المخاطب (أولاك، لأنك، لك، نُصرتك)، مع ضمير المتكلم لصيغة الجمع(علينا، منا)، والتنوع بين الضمائر ليدل أن شكر الله واجب على الجميع ، وواجب علينا الدعاء للممدوح بإخلاص حتى يقبله الله ويؤيد النصر للسلطان.

وقال في مدح المنصور قلاوون، عند فتحه حصن المرقب[٥]:

اللهُ أكْبَـــرُ هـــذا النَّصْـــرُ، والظَّفَـــرُ هذا هو الفتحُ لا ما تـــزعُمُ السِّـــيَرُ
هـــذا الـــذي كَانـــتِ الآمـــالُ إن طمحـــتْ إلى الكَواكبِ تَرْجُـــوهُ وتَنْتَظِـــرُ

فعند النصر يكبّر الجنود، والشاعر يكبّر على هذا النصر والفتح الذي كانت الآمال تطمح إليهما؛ فهو فتح غير مسبوق، فتح حقيقي لا ما تزعمه السير، هذه البداية تدل على النزعة الدينية لدى الشاعر.

والشاعر دائمًا في قصائد الفتوحات ما يؤكد على فكرة أن هذا الفتح قد عجز عنه السابقون، ولولا هذا الممدوح الفارس الشجاع ما فُتِح، وأنه حدث غير مسبوق إليه، فيقول[٦]:

لَيْثٌ أبَى أن يَـــرُدَّ الوجـــهَ عـــن أُمَـــمٍ يَـــدْعُونَ ربَّ العُلـــى سُـــبْحَانه بـــأَبِ
كـــم رامهَـــا ورماهَـــا قَبْلَـــهُ مَلـــك جَمَّ الجُيُوشِ فلـــمْ يَظْفَـــرْ، ولـــم

الشاعر يصف شجاعة الممدوح بالأسد، وأن القدر قد وافقه؛ فكم من فاتح قبله معه جيوش كثيرة و لم يستطع فتحها، فالشاعر أبدع في نظم هذه القصيدة حتى قيل فيه: " شهاب الدين محمود الحلبي القدح المعلى في فتح عكة ولا مُغالاة إن سمّيناه شاعر عكة، كما سمّينا الأشرف خليل قائد عكة وفاتحها ولذا يحلو لي أن أسمِّيه قائد عكة الشعري، كما كان الأشرف قائدها العسكري"[٧].

والشاعر يصف ميدان المعركة والخطة المحكمة للحرب، وكأنَّه كان في ميدان المعركة، وجندٌ من جنودها، فيقول في فتح عكا[٨]:

وجئْتَهَـــا بجُيـــوش كالسَّيـــُول علـــى أمثَالُهَا بين آجَام مـــن القُضُـــب
وحُطْتَهَـــا بالمجانيـــــق الـــتي وَقَـــفَ إزاءَ جُـــــدرانهَا في جحْفَـــــل
مرفوعـــةً نصـــبُوا أَضعَافَهـــا فَغَـــدَا للكَسْـــر، والحَطْـــم مـــنْهُمْ كـــلُّ
ورُضْـــتها بنُقـــوب ذَلَّلـــتْ شُمَمًـــا منـــها، وأبْـــدَتْ مُحيَّاهـــا بـــلا

ومن أبرز السمات لديه في قصائد الفتوحات السردُ، فيستخدم السرد كتكأة فنية،مع العطف (وجئتَها – وحطتها – ورضتها) فمزج بين السمتين مع الالتفات؛ فالتفت من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب؛ حتى يصوّر لنا مشهد الحرب بشيءٍ من التفصيل، وبيان قوة الجيش وكثرته الذي له الفضل الأكبر في النصر.

وقد اعتمد الشاعر على مفردات قوية تليق بمقام الحرب، منها: (آجام من القضب – جحفل لجب) بالإضافة إلى المشهد الدموي المرعب الذي صوّره للقارئ (وغنت البيض في الأعناق) وهي السيوف التي أصبتهم في أعناقهم، فكانوا يرقصون، وليس رقص فرح، بل من شدة الضربة، والنتيجة أنه خلّف الدم في كل مكان، حتى في أسوار المدينة المحاطة بها، ونثرت رؤوس الجثث على الأرض في مشهد مخيف صدّره لنا الشاعر، كل هذا قد حدث بعد أن أحكم القائد زمام المدينة، وحاصرها بجيوش كالسيل من كثرتها، وكثرة أدوات الحرب، ومنها المجانيق.

وبعد هذه الرؤية التي وضحها لنا الشاعر عن الأحداث وتفاصيل المعركة، تم بحمد الله فتح عكا (عام ٦٩٠هـ) بعد أن استمرت تحت أيدي الصلبيين مدة من الزمن ، لذا كان فتحها فتحاً مبينًا، فيقول[٩]:

وتَمَّتِ النِّعْمَةُ العُظْمى، وقد كَمُلتْ بفتحِ صُورٍ بلا حَصْرٍ، ولا نَصَبِ

ويوم عكا قد أنساه كلَّ فتحٍ قد كان قبله، فيقول شهاب الدين الحلبي[١٠]:

يا يومَ عكَّا[١١] لقد أنْسَيتَ ما سَبَقَتْ بهِ الفُتُوحُ وما قد خُطَّ في الكتبِ
لم يبلغِ النُّطْقُ حدَّ الشُّكْرِ فِيكَ فَمَا عَسَى يَقُومُ به ذو الشَّعرِ والخُطَبِ!

وقصيدته في فتح عكا من درر الشعر العربي، وكانت محورا كثيرا لدى العلماء في كتبهم؛ يقول الدكتور محمد زعلول سلام عنها: "تؤكد هذه القصيدة جملة معانٍ كانت تسود مجتمع العصر، وتحكم وجدان الناس، منها أن الشعور بالضياع، والخوف على الدين من الأعداء المتكالبين من الشرق والغرب، كان مسيطرًا على النفوس، وأن الرغبة في الذَّود عن الحياض كانت غاية كل نفس، ولا يضنّ أحد

بشيء في سبيلها، وأن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كانوا سواءً في دعوة الجهاد وفريضة الجهاد للذود عن دين الله الذي بات مهددًا؛ لأن الناس انصرفوا عنه فاستذلّهم الله وسلّط عليهم شرار خلقه، وأنه ينبغي لكي يستعيد المسلمون مكانتهم أن يستعيدوا أولا رضى الله عليهم ، ويستبعدوا نقمته، واستعادة الرضى بالتمسك بأمر الدين، والابتعاد عن نواهيه، واتباع هدي النبي وسنته"[١٢].

وقال في واقعة الأُبلُسْتَين[١٣]:

كـــذا فلْـــتَكُن في الله هـــذِي العـــزَائِمُ ... وإلا تَجْفُوا الجُفـــونَ الصَّـــوارمُ
عـــزائمُ حَادَتْهـــا الرِّيـــاحُ فأصـــبحتْ ... مُخَلَّفةً تبكي عليها الغَمَـــــائمُ
سَـــرَتْ مـــن حِمَـــى مِصْـــرَ إلى الـــروم ... عليهِ وسُوارهُ الظُّبـــاءُ واللهـــاذِمُ
بجـــيشٍ تَظَـــلُّ الأرضُ منـــه كأنَّهـــا ... على سعةِ الأرجاءِ في الضِّـــيق خـــاتِمُ
كتائـــبُ كـــالبحرِ الخِضَـــمّ جيَادُهـــا ... إذا ما تهادَتْ مَوجهُ المُتلاطِـــمُ
تُحيطُ بمَنـــور اللِّـــواءِ مُظَفَّـــرٍ ... له النَّصْرُ، والتأييدُ عبـــدٌ وخـــادِمُ

يبدأ القصيدة بالثناء على عزائم الممدوح وجيشه (هذي العزائم، عزائم حادتها الرِّياح، يلوذُ الدين من عزماته) ويؤكد على أن هذه العزائم في سبيل الله، فالوازع الديني مصدر قوتها، ثم يبدأ بتهنئة الممدوح بهذا الفتح العظيم، ثم يسرد قيمة هذا الفتح وطبيعته.

ثم يعرض لنا أحداث الفتح وتفاصيله، وعلاقة هذا السلطان أو الملك بهذا الفتح المبين -كما وصفه شهاب الدين الحلبي- باعتباره بطلًا أو الشخصية الرئيسية في هذا الفتح، ويشرع في وصف هذا الفتح، ففي البداية خرج السلطان الملك الظاهر وجيشه من مصر إلى بلاد الروم، فيصف قوة جيشه وكثرته حتى بدت الأرض وكأنها ضيقة كالخاتم.

ثم يصف الشاعر المعركة والأحداث وميدان المعركة، ويُظهر بسالة الجيش المملوكي وكتائبه، والخطة الاستراتيجية لهذا الفتح؛ نتيجة عقل واعٍ لديه خبرة في

الحروب، بالإضافة إلى الأسباب الروحية للممدوح بأنه موكّل من قِبل الله، ومدافع عن دينه، كما وصفه الشاعر، ويتناص مع الآية الكريمة "**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**"[١٤]

وألفاظ القصيدة قوية كقوة ميدان الحرب مثل (الجفون الصوارم، الظباء واللهاذم، وشقتها عنه الأكام الطواسم)، ومفردات الحرب (جيش – كتائب – النصر –التأييد –الفتح المبين – مظفر)، بالإضافة إلى مرونة الألفاظ حتى تناسب سرد القصيدة وتأخذ الشكل القصصي، ويستطيع الشعر التحدث عن المعركة ونقل الأحداث للمتلقي بشيء من التفصيل.

وقصائد الفتوحات عادةً ما تنتهي بمدح القائد عند شهاب الدين الحلبي، فيقول[١٥]:

فيا مَلِكَ الإسلامِ يــا مَــن بنصــرِهِ علــى الكُفْــرِ أيَّــامُ الزَّمــانِ مَواسِــمُ

تَمنَّ بفتحٍ ســار في الأرضِ ذِكــرُهُ سُــرى الغَيــثِ تَحْــدُهُ الصَّــبَا،،والنَّعَائِمُ

وفي نهاية القصيدة يمدح الشاعر القائد ويثني عليه، ويخلع عليه ألقابًا نحو: (ملك الإسلام)، فهو يستحق هذا اللقب لأنه بذل روحه النفيسة في سبيل الله وهزم القوم وتغلّب على الحصون القوية العاصية، بعد أن أبرز قيمته وحسن تصرفه في زمام الأمور في المعركة، وقد اتضح هذا من خلال القصيدة .

والشاعر دومًا ما يستلذّ بالنصر على الصليبيين، ويرى أنه في انتصار المسلمين غضب للنصارى، فيقول[١٦]:

أتوا كظلَام اللَّيلِ زيّــــا فَمَزَّقــــــتْ ظلامَنُ وهنأ أستَتــــكَ الزُّهْــــرُ

وكــــانَ لَمْ في الأَرضِ صِــــيتٌ وسُــــمْعَةٌ فلم يبقَ في الدُّنيا لهمُ بعــدها ذِكــرُ

....

قَســــمْتَهُمُ شــــطرينِ غــــيرَ غَــــريقهمْ فلِلسيفِ شَطْرٌ، والقُيودُ لهــا شَــطْرُ

محوت شَعار الكُفْرِ عنهَا فمـا عســـــى يقومُ به في وصْفِ أفعالـكَ الشِّـعْرُ

فالشاعر يصف هيئتهم وملابسهم السوداء واتخاذهم الصليب شعارًا لهم، وقد مزّق الشاعر هذه الملابس بالعذاب، ويصف تبدّل الأحوال بعدما كانوا ذوي سمعة وصيت، منتشر في الدنيا ذكراهم، تبدلت الأحوال وأصبحوا ممزَّقين، والقائد محا شعار الكفر لهم –الصليب– بعد أن قسمهم شطرين؛ الأول مقتول بالسيف، والثاني أسير بين يديه.

ويسمّيهم الشاعر عبَّاد عيسى تارة، والفرنج تارة أخرى، وثالثة بالنصارى، فيقول[١٧]:

أغضَبْتَ عُبَّادَ عِيســى إذ أبــدْتَهُمُ للهِ أيُّ رضًى في ذلــك الغَضَــبِ!

وقال[١٨]:

والنَّصْرُ ألْــوتْ بــالفرنجِ ريَاحُــهُ من بعدِ ما فتَكَــتْ بــه نَسَــمَاتُهُ

والفتح والنصر لم يُرضِ بهما المسلمين؛ بل نال به رضى النبي صلى الله عليه وسلم، والمسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، فيقول[١٩]:

لِيَهْنِيكَ عنــدَ المُصْــطَفَى أنَّ دِينَــهُ توالى له في عــزٍّ دولَتِــــكَ النَّصْــرُ

وبُشْراكَ أرْضَيتَ المســيحَ، وأحمــدًا وإنْ غَضِبَ التَّكْفُــورُ في ذاكَ، والكفــرُ

وقال يصف يوم حمص[٢٠]:

تهــوى أسنَّتُــهُ بيضَ النُّحــــور فمِــنْ آثارهـــا الحُمـــر في أجْيَادِهـــا قُبَــلُ

سلْ يومَ حِمْصَ جُنُودَ المَغُلِ عنــه وقــد ضاقَ الفضَــا بِهِــمُ واسْــتَلَّتِ السُّــبُلُ

والهــامُ تسجُــدُ والأجســامُ راكعــةٌ والمــوتُ يُقْبــلُ، والأرواحُ ترتحِــــلُ

وصف الشاعر أحداث يوم حمص الذي انتصر فيه المسلمون على التتار، بقيادة المنصور لاجين، فوصف السيوف البيض التي تحولت لحمر من دماء الأعداء، وجعلها تختار وتهوى كأنها أشخاص صاحبة رأي وهي صورة جميلة من الشاعر ، بالإضافة

إلى يوم حمص الذي جعله أنساناً عاقلاً يمكن سؤاله ويجيب ، ويقسم الشاعر الأحداث التي دارت في يوم حمص بحسن التقسيم؛ فالهام تسجد، والأجساد راكعة، والموت يقبل، والأرواح ترتحل، وكان المخلِّص من هذا الرعب هو المنصور لاجين الذي حسم المعركة لصالحه.

وقلما يمزج الشاعر بين الغزل والفتح، فيقول عند فتح حصن المرقب[٢١]:

ولقد ذَكَرْتكِ، والحياةُ كَرِيهةٌ والموتُ يَرْقُبُ تحتَ حِصْنِ المرْقبِ

والبيضُ خلل السَّهامِ كأنَّها بَرقٌ تألَّقَ في غَمَامِ ضَيّبِ

والحِصْنُ من شَفَقِ الدُّرُوعِ كأنَّه حسْنَاءُ ترفُلُ في رداءٍ مُذْهَبِ

سامي السَّمَاءَ فَمَنْ تَطَاوَلَ نَحْوَهُ للسمْعِ مُسْتَرِقًا رَمَاهُ بكوكبِ

فالشاعر يخاطب محبوبته، ويخبرها بأنه ذكرها أثناء الحرب والحياة كريهة، وهذا يدل على مكانتها لديه حتى في أصعب الأوقات، وهي الحرب، فذكْر محبوبته لا يفارقه، ثم يشرع في وصف الحصن المزين بالدروع كأنَّه فتاة حسناء مرفلة بالذَّهب، ويصف ارتفاعه وعلوّه بالسماء التي لا يستطيع أحد الاقتراب منها، وتناص الشاعر مع الآية القرآنية"**إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ**"[٢٢] والمزج هنا جيد بين الغرضين كسر به حدة المعركة وشدتها، مع التشبيه الذي جمَّل الصور وأرهفها.

المبحث الثاني: شعر المعارضات

المعارضة الشعرية في اللغة: " عارض الشيء بالشيء معارضةً، قابله، وعارضْتُ كتابي بكتابه أي قابلته. وفلان يعارضني أي يُباريني، وفي الحديث: إن جبريل، عليه السلام، كان يُعارضه القُرآنَ في كل سنة مرة وإنه عارضه العام مرتين، قال ابن الأثير: أي كان يُدارسه جميع ما نزل من القرآن من المعارضة المقابلة"[٢٣]

المعارضة الشعرية في الإصطلاح: هي فن من فنون الأدب العربي، وهي أن يقول شاعر قصيدة في موضوع معين، فيُجعب بها شاعر آخر فينظم على غرارها، في نفس الغرض الشعري للقصيدة، وعلى نفس الوزن والقافية، وهي لا تقتصر على الشعر فقط، بل تشمل الأدب بشقَيه: الشعر والنثر.

والمعارضة الشعرية تعمل على إحياء التراث والتنقيب في درره الشعرية المدفونة، فالشاعر ينقب في الماضي أو الحاضر حتى يخرج لنا قصيدة يستطيع محاكاتها "ولعل الصورة التطبيقية التي تطرحها فكرة المعارضات الشعرية تنتهي بنا إلى دعم ما انتهى إليه القول حول أصول الحركة الأدبية مزجًا بين التراث والتجديد، ضمانًا للتواصل الفكري بين الشعراء، وتأكيدًا لفكرة الأصالة من خلال استمرارية هذا التراث"[٢٤].

والدافع للمعارضة الشعرية هو في المقام الأول الإعجاب بالقصيدة السابقة، ورؤيته في نفسه موهبة شعرية يستطيع أن يضاهي بها القصيدة السابقة

إنّ المعارضات فن أصيل في شعرنا العربي بالرغم من عدم ظهوره في العصر الجاهلي، بل ظهرت في العصور المتأخرة، مع شعراء الأندلس الذين كانوا يعارضون شعراء المشرق؛ لاعتقادهم أن شعراء المشرق يتفوقون عليهم في الشعر، فكانوا يعارضونهم إعجابًا منهم بشِعرهم، ويثبتون لأنفسهم أنهم يستطيعون محاكاتهم ومجاراتهم في الشعر.

والمعارض لا يعارض قصيدة بعينها تقليلًا منها أو من جودتها ومكانتها، بل من دافع الإعجاب، وتاريخنا الأدبي به العديد من المعارضات الشعرية المشهورة؛ منها

معارضة أحمد شوقي لسينية البحتري، ومعارضته أيضًا للبوصيري في قصيدته البردة، ومعارضة الأخطل للامية بانت سعاد لكعب بن زهير، والأخيرة قد حظيت بكثرة المعارضات الشعرية.

وعمالقة الشعراء في الشعر العربي قد وصلوا قمة الشعر العربي وتربعوا على عرشه، كالمتنبي، وأبي تمام، والبوصيري، والبحتري، وكعب بن زهير، وغيرهم، فالتالي يعجب بهم وبفصاحتهم شعراء يحاولون معارضتهم إعجابًا بشعرهم، وربما شهرةً لهم، فالشاعر المغمور عندما يناطح قصيدة على قمة الشعر العربي يحظى بالشهرة ويجذب الأضواء إليه.

والشعراء يتأثرون بالتراث ويعارضونه، مثلما فعل شاعرنا؛ فقد تأثر بقصيدة أبي تمام في فتح عمورية، فعارضه في قصيدته الشهيرة فتح عكا، وربما يتأثر الشاعر بشاعر معاصر له فيعجب بشعره ويعارضه.

قال حبيب بن اوس الطائي يمدح أمير المؤمنين المعتصم بالله أبا إسحق محمد بن هارون الرشيد، ويذكر فتح عمورية[٢٥]:

السَّيفُ أصدقُ أنبــاءً مــن الكُتُــبِ في حَدّه الحدّ بين الجــدّ واللعــبِ
بيضُ الصَّفَائحِ لا سُــودُ الصَّــحائف في متونهنَّ جلاءُ الشّــكِ والرِّيــبِ

قصيدة أبي تمام هي السابقة، وقصيدة شهاب الدين الحلبي هي اللاحقة، وبين الشاعرَين حقبة زمنية كبيرة تقدر بحوالي خمسة قرون، أُعجب شهاب الدين الحلبي بقصيدة أبي تمام، وتأثر بها فنسج على منوالها أشهر قصائده الشعرية.

والقصيدة عند الشاعرَين في غرض شعري واحد، وهو شعر الفتوحات، فأبو تمام يمدح المعتصم بالله لفتحه بفضل الله عمورية، وشهاب الدين الحلبي يمدح ويهنئ الأشرف خليل بانتصاره على الصليبيين وفتح عكا.

يقول شهاب الدين الحلبي معارضًا قصيدة أبي تمام[٢٦]:

الحمدُ لله ذلّت دَولــةُ الصُّــلُبِ وعزَّ بالتُّركِ دينُ المُصْــطَفى العَــربي

هذا الذي كانتِ الآمالُ لو طلبـــتْ رُآه في النّومِ لاستحْيَت من الطلـــبِ

القصيدتان مضمونهما واحد، وطولهما متقارب؛ فقصيدة الأول واحد وسبعون بيتًا، وقصيدة الثاني ثمانية وستون بيتًا، والوزن والقافية واحد في القصدتين؛ فنظم الأول على بحر البسيط وقافية الباء المطلقة، والثاني طابقه في ذلك، والأولى بدون مقدمات، قد بدأ بالموضوع مباشرة، والتهنئة ووصف المعركة، والمدينة وشدة حصانتها، ثم يبرز دور القائد وشجاعته وباسلة جيشه ويصف ميدان المعركة والأدوات، وفي ثنايا المعركة يصف المعتصم بالله، وكذلك شهاب الدين الحلبي دخل بالموضوع مباشرة بدون مقدمات ، وهذا ما يناسب قصائد الاحتفالات ، تأثر الحلبي بأبي تمام تأثرا كبيرة حتى في استخدام الحروف نفسها مثل(ح، س، ص، ت) بالإضافة إلى التضاد في البيت الأول عند أبي تمام بين كلمتي (الجد واللعب)، وعند شهاب الحلبي (ذلت وعز)، و استخدام الجملة الإسمية كبداية للقصيدة، فالقصيدة الأولى(السيف أصدق)، والثانية (الحمد لله)، فنجد شهاب الدين الحلبي معارضا جيدا لأبي تمام حتى في الأفكار.

يقول أبو تمام في وصف فتح عمورية[٢٧]:

فتح الفُتـــوح تعـــالى أن يحـــيطَ بـــه نظمٌ منَ الشّعرِ أو نثـــر الخطـــبِ
فتحٌ تفتح أبـــواب الســـماء لـــه وتبرز الأرضُ في أثوابهـــا القشـــبِ
يا يوم واقعـــة عموريـــة انصـــرفت عنك المنى حفلا معســـولة الحلـــبِ

هذه وجهه نظر أبي تمام في فتح عمورية، فهو فتح تعالى أن يحيط به الشعر أو النثر؛ لعظمته، من روعة الفتح تفتح له أبواب السماء، وتفرش له الأرض أثوابها القشب، ثُم يصرح باسم يوم واقعة عمورية، ويذكر تبدل أحوالها بين التمني في الماضي بفتحها، والحاضر بالاحتفال بعد فتحها.

وفي هذا المعنى السابق لأبي تمام لم يشرد شهاب الدين الحلبي، فقال[٢٨]:

يا يومَ عكَّا لقد أنْسَيتَ مـــا ســـبَقَتْ به الفُتُوح وما قد خُطَّ في الكتبالالكُتـــبِ

لم يَبْلُغِ النُّطْقُ حدَّ الشُّكْرِ فيك فما عَسَى يقُومُ به ذو الشِّعرِ، والخُطَبِ

فقد سار شهاب الدين الحلبي على نهج أبي تمام فذكر اسم المدينة التي بصددها كتبت القصيدة، فالقصيدة الأولي كانت من أجل فتح عمورية المدينة وهي مدينة حصينة تمنعت بالفتح لمدة طويلة، وكذلك القصيدة المعارضة لها كتبت من أجل فتح عكا، وتجرعت الصبر وصبرت مدة طويلة وهي تحت سيطرة الصلبيين، فالظروف متشابهة، وشهاب الدين الحلبي استخدم مفردات قصيدة أبي تمام ذاتها أو مرادفها؛ مثل كلمة الفتوح فهي وجدت في القصيدتين ، قال أبو تمام بأن الفتح الذي حظيت به عمورية لم تحيط به النظم والشعر ، وكان رد الحلبي عليه أن فتح عكا لم يخط في الكتب جميعا ولفظت شهاب الدين الحلبي نجدها أشمل وأفضل، بالرغم من أنه استخدم لفظه الشعر والخطب كما استخدمها أبو تمام، ولكن السياق مختلف، فأبو تمام كان يقصدُ الفتح ذاته، أما الحلبي استخدمها كمدح للممدوح الذي كان الفضل في هذا النصر.، اختار أبو تمام تسمية عمورية يوم واقعة عمورية، وكذلك شهاب الدين الحلبي قال: يوم عكا، حتى التشابه وصل إلى حدٍ كبيرٍ في أنَّ القصديتين يبدآن بحرف العين.

وقد عارض شهاب الدين الحلبي، شهاب الدين ابن الخيمي في بائيته، يقول ابن الخيمي[٢٩]:

لم يقضِ في حُبْكم بعضَ الذي يجبُ صبٌّ متى ما جَرَتْ ذكراكم يبُ

أحبابنا والمنى تُدني زيارتكم وربما حال من دون المنى الأدبُ

قاطعتُموني فأحراني مُواصِلةٌ وحلتمُ فحلا لي فيكم التَّعبُ

ما رابَكم من حياتي بعد بعدكمُ وليس لي في حياة بعدكم أربُ

يتحدث الشاعر عن أحبابه، وعن حاله بعد فراقهم وبُعدهم، وفي هذه السياق ينظم شهاب الدين الحلبي فيقول[٣٠]:

قضى وهذا الذي في حبـــهم يَجـــبُ في ذمه الوجد تلك الروحُ تحتُحْتَســـبُ
ما كان يومَ رحيلِ الحيِّ عـــن إضـــمٍ لروحـــــه في بقـــاءٍ بعدهـــــم أربُ[٣١]
صبٌّ بكى أســـفًا والشـــملُ مجتمـــع كأنّـــــه كـــــان للتفريـــــق يرتقـــب

المضمون والوزن والمعنى في القصدَتين واحد؛ فكل منهما يتحدث عن أثر فراق الأحباب بعد موتهم، شهاب الدين الحلبي أخذ المعنى نفسه ، واتفقت القصدتان في التصريع فقيدة ابن الخيمي، حل التصريع في البيت الأول بين (يجب ويجب)، وحلَّ التصريع عند شهاب الدين الحلبي في (يجب وتحتسب) التصريع كان في حرف الباء عند كلا منهما، استعار شاعرنا المفردات ذاتها التي استخدمها ابن الخيمي بنفس المعنى: (يقض، وحبكم، وصب، وبعدهم، أرب) وغيرها من المفردات الكثيرة في ثنايا القصيدة، بدأ ابن الخيمي قصديته بالنفي (لم يقضي) نفى الفعل يقضي، وشاعرنا أثبت الفعل.

القصيدتان توافرت فيهما شروط المعارضة، وتطابق في كثيرٍ من الأمور ، ما عدا القليل فالاختلاف مثل أن ابن الخيمي كان يتحدث بضمير الجمع للمخاطب ، والثاني يتحدث بضمير الغائب للجمع ، أما الوزن فواحد، فهما قد نظما القصيدَتين على بحر البسيط.

ولا يشترط في المعارضة أن يكون بين المتعارضَين فترة زمنية كبيرة، فمن الممكن أن يكونا متعاصرَين، كشهاب الدين الحلبي وشهاب الدين ابن الخيمي، فالشاعران متعاصران، الأول تُوفي سنة خمس وثمانين وستمائة بالقاهرة، والثاني سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

والشاعر يعجب بالقصيدة؛ فينظم على معانيها ووزنها وقافيتها، وأحيانًا يقتبس منها معاني ومفردات بعينها، كما في المثال السابق، وأحيانًا يكتب على نفس الوزن والقافية مع اختلاف المعنى، كما فعل شاعرنا مع أبي عثمان الخالدي[٣٢] الذي مدح غلامه في دالية، فقلب شهاب الدين الحلبي المعنى وجعله هجاء للغلام.

قال أبو عثمان الخالدي في وصف غلامه رشأ، وهي بديعة في الحسن[٣٣]:

ما هُو عبـــــــدٌ لكنــه ولـــــدٌ خَوَّلنيـــــهِ المهيمـــــنُ الصمـــــدُ

وشدَّ أزري بحسنِ خدمتـــــــــــهِ فهو يدي والـذَّراعُ والعضـــــدُ

صغـــيرُ ســـنٍّ كـــبيرُ معرفـــــــــةٍ تمازج الضعفَ فيه الضعفُ والجلـــدُ

قد وصف غلامه بلغةٍ سهلةٍ بسيطة، ينفي عنه أنه عبد له، ويصف فائدته في شده أزره، ويخدمه بالحسنة، فهو يده وذراعه لا يستطيع الاستغناء عنهما، ويشرع في أوصافه ويرسم لنا شخصًا ضعيف الجسد، صغير السن، أكحل العينين، معش الطرف، وخده ورد.

فأعجب شاعرنا بالقصيدة؛ فأبدع في نظم قصيدة تعكس المعنى السابق، فقال[٣٤]:

ما هو عبدٌ كلا، ولا ولـــــــد إلا عنـــاءٌ تضْـــنَى بـــهِ الكبـــدُ

وفرطُ سُقْمٍ أَعْيَا الأُساة فـــــــلا تساوتِ الـــرُّوحُ منـــه والجســـدُ

أقبحُ ما فيـــهِ كُلُّـــهُ فَلَقـــــــدْ إن كان للقـــردِ في الـــورى ولـــدُ

أشبهُ شيءٍ بالقردِ فهـــو لـــــــهُ تسيلُ دمعًـــا ومـــا بهـــا رمـــدُ

هدم شاعرنا معاني قصيدة أبي خالد، وحافظ على وزن القصيدة التي جاءت على بحر المنسرح، وكان اختياره موفقًا؛ فالمنسرح المعروف عنه سهولته على اللسان، والقصيدتان ألفاظهما سهلة على اللسان، وحافظ أيضًا على قافية الدال، أبو خالد حلّ التصريع لديه بين كلمتي (ولد وكبد) ، وحلَّ عند شهاب الدين الحلبي في (ولد وكبد) نفس الحرف الذي كان بالقصيدة الاولي الذي كان له أثر موسيقي بارز في بداية القصدتين.

بدأ أبو خالد قصيدته بنفي العبودية عن الفتى الذي يتحدث عنه وأثبت له صفه الولد أي عظَّم شأنه، أمّا شهاب الدين الحلبي طابقه في نفي العبودية عن الفتى ولكن أيضا

نفي عنه صفة الولد ووصفه بصفات مثل أنه مريض يصيب الكبد وعدة أمراض أُخرى أي حقَّر من شأنه.

عارضه شهاب الدين الحلبي واستخدم نفس الوزن والقافية ولكن عكس المعنى، فالأول يصف بالولد والثاني ينفي عنه أنه ولد ولا عبد بل يضني الكبد، ويشبه القرد، ويصف مقلة عينه بأن بها مرضًا، والأول يصفها بالجمال فهي كحلاء.

يقول أبو عثمان الخالدي[٣٥]:

مباركُ الوجهِ مُذ حظيتُ به ... حالي رحيّ وعيشتي رَغَدُ
مسامري إن دجا الظلام فلي ... منهُ حديثٌ كأنه الشهدُ
خازنُ ما في يدي وحافظُه ... فليس شيءٌ لديّ يفتقدُ

يعدد الخالدي صفات غلامه رشأ ويصفه بحسن الوجه، ومسامره في أحاديث الليل، وأمين يحفظ له ثيابه وكتبه، وغيرها من الصفات الحسنة.

ويقص شهاب الدين الحلبي قصة قصيرة عن الغلام الذي كله عيوب فيقول ساخرًا[٣٦]:

رأي كرأيي في مُشترايَ له ... سفاهةً يشُوبها رشدُ
فاجتاز خلفي كَعَاق والده ... مِلطٌ لأمثال ذاك مقتصدُ
فمرَّ يومًا بها على رجلٍ ... لديهِ علمُ اللصوصِ ينتقدُ
أودعها عندهُ ففرَّ بها ... وما حواهُ من بعدها بَلَدُ

.....

قص شاعرنا قصة هو شخصية من شخصيتها، فالحورية جملت الأبيات وأوصلت المعنى الهجائي المراد، والشاعر أخذ من القصيدة السابقة كلمات في القافية وعكس معناها مثل (مجتهد – أجد –يفتقد – الولد – الجلد).

هذه هي القصيدة الوحيدة التي وجدت لشهاب الدين الحلبي في الهجاء وكانت أشبه بالسخرية والفكاهة، ليست هجاء تشيب منه الرؤوس؛ ربما قلة هذا العرض

لديه راجعة إلى فطرته السليمة التي نشأ عليها، فتتلمذ على يد شيوخ وعلماء وحفظ كتاب الله في صغره، وكان ذا شأن بالمجتمع؛ فهو كاتب ديوان الإنشاء في مصر والشام لعدة سنوات، فمنصبه الرفيع رفعه عن كتابة الكلام الفاحش.

المصادر والمراجع: الهوامش والإحالات :

(١) الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرُشي الدمشقي ٧٠١ـ ٧٧هـ ، البداية والنهاية، تحقيق عبدالله بن عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، بدار هجر، الجزء السابع عشر.

(٢) أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري، كتر الدُّرر وجامع الغرر الجزء الثامن الدُّرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان.

(٣) عادل كتاب العزاوي، شعر شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥هـ) جمع ودراسة وتحقيق، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، ص ١٥٣.

(٤) السابق: ص ٢٢٦.

(٥) السابق ص ٢١٣.

(٦) عادل كتاب العزاوي، شعر شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥هـ) جمع ودراسة وتحقيق: ص ١٥٤، ١٥٥.

(٧) محمد حسن عبد اللطيف علي: صورة من شعر الفتوحات للشاعر شهاب الدين محمود الحلبي ٦٤٤هـ – ٧٢٥هـ في فتح عكة ٦٩٠هـ، ص ٢٧٩.

(٨) عادل كتاب العزاوي، شعر شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥هـ) جمع ودراسة وتحقيق: ص ١٥٨.~}

(٩) عادل كتاب العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥هـ) جمع ودراسة وتحقيق: ص ١٥٩.

(١٠) السابق: ص ١٥٥

(١١) عكَّة: بفتح أوله، وتشديد ثانية، هي اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن، عكة مدينة حصينة كبيرة الجامع فيه غابة الزيتون يقوم بسرجه وزيادة، للمزيد أنظر شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر بيروت ،ص ١٤٣.

(١٢)محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي الدولة الأولى_ (٦٤٨هـ – ٧٨٣هـ) ، دار المعارف بمصر: ص ٣٠.

(١٣) عادل كتاب العزاوي ، شعر شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥هـ) جمع ودراسة وتحقيق: ص ٣٦٦، ٣٦٧.

(١٤) سورة فصلت الآية، ١٠

(١٥) عادل كتاب العزاوي، شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥ه) جمع ودراسة وتحقيق: ص ٣٦٩.

(١٦) السابق: ص ٢٣٠

(١٧) السابق: ص ١٥٦.

(١٨) السابق: ص ١٧٩.

(١٩) السابق: ص ٢٢٦.

(٢٠) السابق: ص ٣٢٥.

(٢١) السابق: ص ١٦١.

(٢٢) سورة الحجر: الآية ١٨.

(٢٣) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، لسان العرب، المجلد السابع، دار صادر بيروت ، ص ١٧٦.

(٢٤) عبد الله التَّطاوي، المعارضة الشعري بين التقليد والإبداع، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص٩٣.

(٢٥) حبيب بن أوس الطائي، ديوان أبي تمام، قدم له عبد الحميد يونس ومصطفى عبد الفتاح، مطبعة حجازي بالقاهرة، ص ٧.

(٢٦) عادل كتاب العزاوي، شعر شهاب الدين محمود الحلبي(ت٧٢٥هـ) جمع ودراسة وتحقيق، ص ١٥٣.

(٢٧) ديوان أبي تمام: ص٨.

(٢٨) عادل كتاب العزاوي، شعر شهاب الدين محمود الحلبي(٧٢٥هـ) جمع ودراسة وتحقيق: ص ١٥٥

(٢٩) محمد بن شاكر الكتبي(٧٦٤)،،فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المجلد الثالث، دار صادر، ص ٤١٦.

(٣٠) عادل كتاب العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي(ت ٧٢٥هـ) جمع ودراسة وتحقيق، : ص ١٤٣.

(٣١) أرب: الإرْبَةُ والإربُ: الحاجة، وأَرَبَ إليه يَأرِبُ أربًا: احتاج، أنظر : أبي الفضل الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقى المصري، لسان العرب ، دار صادر ، المجلد الأول.

(٣٢) هو سعيد بن هاشم بن وعلة بن عرام بن يزيد بن عبد الله، ينتهي إلى عبد القيس، له وأخيه أبي بكر محمد تصانيف منها (حماسة شعر المحدثين)، وكتاب (أخبار الوصل)، وكتاب (أخبار أبي تمام ومحاسن شعره) وكانت وفاة الخالدي في حدود الأربعمائة. انظر: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوافيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، المجلد الثاني، دار صادر بيروت، ص ٥٢، ٥٣، ٥٧.

(٣٣) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوافيات والذيل عليها: المجلد الثاني، ص ٥٤.

(٣٤) عادل كتاب العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي: ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٣٥) الكتبي، فوات الوفيات: المجلد الثاني ، ص ٥٥.

(٣٦) عادل كتاب العزاوي، شهاب الدين الحلبي (ت٧٢٥هـ) دراسة وجمع وتحقيق : ص٢٠١.